تولستوى وآنا كارنينا

بقلم : روز ماري إدموندز

ترجمة : ماهر شفيق فريد

ذات يوم من شهر مارس ١٨٧٣ التقط تولستوى كتابا تركه احد اطفاله ، وشرع يقرأ منه لزوجته بصوت مرتفع : (وصل الضيوف الى المنزل الريفى) فهكذا كان مطلع حكاية بوشكين الشذرية • وعلق تولستوى قائلا : (هكذا ينبغى أن يبدأ المرء • ان بوشكين يضع قراءه رأسا فى وسط الحديث • اما سائر الكتاب فيصفون الضيوف والحجرات بينما يشرع بوشكين فى العمل فورا) •

وفى تلك الأمسية كتب تولستوى فى غرفة مكتبه الصفحات الاولى من (آنا كارنين) التى كان موضوعها ماثلا فى ذهنه منذ التحقيق الذى كان محوره شابة القت بنفسها تحت عجلات قطار قرب المحطة التى لاتبعد عن منزل تولستوى الا بأميال قليلة •

كان تولستوى حينذاك فى الرابعة والاربعين ، فى ذروة نضجه ، لم يختل بعد التوافق بين الفنان والاخلاقى فيه • وكان قد انتهى قبل ذلك ببضع سنوات من (الحرب والسلام) وما لبث (آنا كارنين) ــ وهى الأقرب الى الكمال ــ ان بلغت بالرواية النفسية فى القرن التاسع عشر نقطة ارتفاع المياه •

اننا نجد فى (آنا كارنين) ، بانوراما واسعة للحياة فى روسيا وللانسانية على وجه العموم ، ورغم ذلك لا يضطرب استمرار الحديث ابدا وتظل الشخصيات الرئيسية ماثله فى المقدمة • ان تولستوى لا يومىء الى اى عظة اخلاقية : فهو يدع تحول اشكال المنظار يجسد معنى الكلمات المتأملة التى تلى العنوان • ونحن لا نحكم بشىء وانما نراقب•ليس أمامنا غير حل واحد : الرحمة والحب • ويقول دوستوفيسكى (وجد الشر قبل وجود البشر • واذ تدور بالبشر زوبعة الحياة ، يقترفون الجرائم ويموتون) • فآنا تطيع قوة الحياة ولكن لابد لها من أن تموت وليس لانسان أن يقيم سعادته على آلام انسان آخر ، بينما تضحى آنا بزوجها وابنها • وفى الفترة القصيرة التى ترقد فيها مهددة بالموت ، نجد أن الابطال الثلاثة ــ آنا نفسها وزوجها وعشيقها ــ يغدون بسطاء صالحين • على انه ما ان تسترد قواها حتى يعى الثلاثة عجزهم فى الصراع المقبل (حتى يضطروا الى فعل الشر الذى يعده العالم الوضع

الطبيعى) • ان وجودها الخاوى ـ كزوجة لكارنين ـ قد اظلم وعيهـــا الروحى ، فنراها بلا مثل أعلى حقيقى تتعلق به ، وقد راح جنون شهوتها يلتهم ذهنها الشجاع شيئا فشيئا • ويخجل قلبها اذ يجد ان حياتها لم يعد لها هدف غير ادخال السرور على نفس عشيقها ثم تعذبها الغيرة وتأبى فى رعب ـ لغرورها ـ ان تنجب اطفالا ولابد لها من ان تتناول المورفين اثناء الليل لتسكن من عذاباتها الى ان يلقى عذابها الداخلى المرير الى الموت تحت عجلات عربة البضائع فى القطار •

وانى جانب مأساة آنا تتطور قصة أخرى هى ـ من عدة نواح ـ تاريخ تولستوى وزوجته • ونجد ان نواحى الشبه بين القصتين لاتحصى : فغرام كيتى وليفين ليس الا نقلا لذكريات تولستوى العائلية مثلما نجد ان وفاة شقيق تولســـتوى تلك الوفاة المئسومة • ومنظر ميلاد طفل كيتى مستوحى مباشرة من رد الفعل العاطفى لتولستوى ازاء ميلاد طفله الاول • ويخلع تولستوى على ليفين قوته البدنية العظيمة وحبه للتربة والفلاحين والتغيرات السريعة التى تطرأ على حالته النفسية واندفاعه فى تنفيذ افكاره الى أقصى الحدود وقدرته على ان (يدمر ويعيد خلق العوالم)كما انه كانت لتولستوى نفسه أجاثاميها لوفنا عجوز تدير منزله فى ياسنايا بوليانا الى ان تزوج ! ثم هناك ذلك الشبه الوثيق بين طلب ليفين يد كيتى وطلب تولستوى يد زوجته اذ خط كلا الرجلين بقطعة طباشير على بطاقة مائدة الحروف الاولى من الكلمات التى كانا اشـــد عصبية من ان يتفوها بها • وتولستوى ـ مثل ليفين ـ قد دفعته امانته الصارمة الى أن يضع مفكرته الحميمة بين يدى حبيبته حتى تعرف ماضيه (وزوجة تولستوى ـ مثل كيتى ـ قد صدمت لذلك واوذيت ايذاء قاسيا) وليفين ـ مثل تولستوى ـ يهاجم المجتمع المعـاصر والنفـاق والتحرر الرائج ايامهـا وتـدين غرف الجلوس • وحملته تنصب أيضا على العالم (الذى يشتت كل الأحاسيس الصـادقة ويسحق لامحالة حماسة العقل السخية) وذلك هو العنصر الثالث فى الرواية •

ان ليفين يتعذب من جراء الصراع الناشب فى داخله بين العقل والقلب •

ويصور تولستوى ـ من خلال قلق ليفين الفلسفى ـ المأساة الخفية لجيل أحس بأنه خرج من الحياة نتيجة لخوفه من الموت ذلك الخوف الذى جعل حياته كلها بلا معنى:

(وليفين الذى كان ابا وزوجا سعيدا يتمتع بصحة كاملة كثيرا ما كان يدنو من الانتحار حتى ليتعين عليه ان يخفى حبلا والا شنق نفسه • ولم يكن يخرج ومعـه بندقية مخافة ان يرمى نفسه بالرصاص) •

وكما كتب تولستوى الى فت : (متى تحقق الانسان من ان الموت هو نهاية كل شىء ، لم يبق ماهو اسوأ من الحياة) (وثمة نقطة صغيرة ولكنها ذات دلالة : فمن بين المائتى وتسعة وثلاثين فصلا التى تتألف منها آنا كارنين لانجد الا فصـــلا واحدا له عنوان • وهذا العنوان هو : الموت) • ويجد ليفين الخلاص من خلال حكمة فلاح امى يخبره بأن الانسان لابد وان يعيش لا من أجل حاجاته وانمـا من أجل الله ومن أجل

روحه فيتحقق ليفين عند ذاك من ان العقل لم يعلمه شيئا : وان كل ما يعرفه قد اتاه وانجلى له عن طريق القلب والملاحظة الدينية التى ترد الآن ليست الاصدى للعملية العقلية التى نمت وقتها فى ذهن تولستوى (الذى بادر بالاعتراف : عرفت ايضا ان معيار الخير والشر لم يكن ما يقوله الناس او يفعلونه : وانه ليس التقدم وانما هو نفسى وقلبى) • وليس السلام الذى حظى به ليفين اخيرا مقنعا تمام الاقناع • فهو حالة منشودة أكثر منها حالة تحققت فعلا حتى ليشعر المرء بأنه ليس بعيدا عن الارتداد الى الشك • وكما كان الشأن مع تولستوى نفسه لا يستمر محو العقل طويلا : فكلاهما سيطالب بالسعادة مكافأة له على ترك العالم • انهما يتساءلان أكثر مما ينبغى • يقول دوستويفسكى : (ان ذهن ليفين ممعن فى القلق وسيدمر ايمانه مرة أخرى •• سيمزق نفسه على مسمار عقلى من صنعه) • وقد لاحظ فلاح من فلاحى تولستوى اذ وقف قرب قبر سيده بعد أن واراه الثرى : (ان الافراط فى مطالعة الكتب يضل بك سواء السبيل فى اغلب الاحيان) • وليفين ـ كتولستوى ـ لن يبقى طويلا قرين العين وانما سيحاول تغيير كل شىء وترتيبه على نحو افضل بطريقته الخاصة •

ان ليفين انعكاس صادق لتولستوى نفسه • ونجد ان تولستوى يعبر ـ من خلال شخصية ليفين ـ عن معتقداته وآرائه بل ويدسها احيانا فى فم ليفين دسا • وقد اعتادت الكونتيسه تولستوى ان تقول : « ليوفوتشكا : انت ليفين + الموهبة • وليفين شخص لايطاق !)

اما كارنين ، زوج آنا ، فهو من بعض النواحى نقيض ليفين : انه يمثل ساكن المدينة البيروقراطى المتباهى الذى يخفى تحت قناع من التهكم ذكاء عقل ضيق ـ وما زال يحتفظ بكرمه عن خوف ـ انه ـ بكلمات رومان رولان ـ : « يخشى أن يستمع الى صوت قلبه وهو محق فى هذه الخشية لانه عندما يستسلم له ينتهى بالارتماء فى حالة من التصوف ملؤها الهراء » •

ثم هناك شقيق آنا : ستيفا • وهو مرح لايحمل مسئولية ، تحببه ابتسامته الودود الى كل انسان يلتقى به • وهناك حشد من الشخصيات الاخرى صورت جميعا بنفس الصدق لان تولستوى يتناولها تناولا تحليليا (واستجابته لاتخذله) • وهو اقل اهتماما ، واقل اهتماما بكثير ، بما تفعله شخصياته •

والدافع هو كل ما يهمه • ويشكل أسلوبه من اندفاعه المشوق الى نقل السجل النفسى الذى يكون أحيانا كالحياة التى يسجلها ـ ساذجا مكدورا وان كان ينبض بالحيوية دائما ابدا •

ظهرت (آنا كارنين) على اجزاء فى مجلة شهرية هامة ، حتى القسم النهائى الذى رفض ، لان الآراء التى يعبر عنها لم تكن مما يوافق آراء محررى المجلة • ونشرت الرواية كلها منفصلة فى شكل كتاب عام ١٨٧٨ : أى بعد اتمامها بعام •